العلم للعامة

من مفاخر القرن العشرين

ينظر القرن العشرون الى تقدم العلوم معجباً بما اوتيه من الفرائب والعجائب في اخضاع قوى الاثير والهواء والارض والماء والكهربائية واستخدامها كلها لمنفعة الانسان وتخفيف مشقاته واتعابه. على ان هنالك مظهراً من مظاهر تقدم العلم واتساع نطاقه قلما نرى لهُ ذكراً في مفاخر هذا القرن وهذا المظهر هو لعمري اعظم المظاهر شأناً وابعدها اثراً وهو اول البراهين على تقدم العلم واجلالها. الا وهو نزول العلم عن عرشه لرفع مقام العامة وافهامهم بعض غوامضه

فالعلم الذي كان في القرون السالفة مملكة محصورة ضمن حدود دقيقة لا يدخلها الاَّ افراد قلائل ويُحظر على غيرهم الاقتراب منها هي الآن مشاع للكل لا تحصرها شريعة موتروولا تُمنع المهاجرة اليها ولا خطر اصفر فيها لتكون ميدان جدل بين الشرق والغرب ولا مسألة شرقية معقدة تكتنفها لتكون مشكلة من مشاكل السياسة. بل لها الآن شروط وقوانين حقَّ لمن انمها ان ينضم الى رجال العلم ويحمل لواء هذه المملكة وللحال تدك الحصون والحواجز بينهُ وبين من هم على شاكلته من ابناء الامم الاخرى وبناتها

وما هذا بالمظهر الوحيد لما اريد بل نجد في هذا القرن علاقة حيوية بين العلم والعامة

فالعالمُ القديم الذي كان يرى العلم باتعه في اوليات فلسفية عن تعريف الفضيلة والمعرفة وكان لا يجد لنفسه مقرًّا الاَّ في الصوامع وكانت افضل علامات علمه تنسكهُ وزهدهُ نراهُ اليوم يسعل بين العامة ومعهم ولهم. كان الناس قبلاً ينظرون اليه مشعوذاً ساحراً اما الآن فيرون فيه صيدليًّا قانونيًّا وكيماويًّا خبيراً يعمون اليه لتركيب الادوية او لاستشارته في امور صناعتهم وزراعتهم. ومن كانوا يرون فيه جنًّا وشيطاناً ينظرون اليه الآن معجبين باوتوموبيله وفونوغرافه وتلفونه وتلغرافه وروو الى آخر ما هنالك من المكتشفات البخارية والكهربائية. والنتيجة مزدوجة الفائدة وهي تحرير العامة من خوفهم منهُ والانتفاع بمنتجات عقله وتجاربه

ثم بفضل رجال العلم الافذاذ تفاهم العلم مع العامة تفاهماً جزئيًّا فانتسخت

من تصورات الناس معتقدات وخرافات كانت سبباً لضعف قواهم المعنوية. فتجد اليوم في كل بلد نفراً من الناس لا يلجأون الى صناع الحديد والطبول والدفوف خائفين مستعوذين عند خسوف القمر بل يعرفون الاسباب الطبيعية التي تسببهُ. ووجود هذا النفر توطئة لتحويل الباقين وتعليمهم

وقلما نجد اليوم مقاطعة خالية من افراد يعرفون القليل عن الكهربائية او اسماء النجوم او مبادىء الكيمياء او قواعد علم الصحة او اصول مساعدة الجرحى المساعدة الاولية او تطبيب مريض في العائلة قبل دعوة الطبيب او غير ذلك من اصول المعارف

ففخر القرن العشرين اتساع نطاق العلم بكثرة العلماء المحققين وكثرة تفرعهم وكثرة اختصاصهم وكثرة انتفاع الناس من مباحثهم حتى صار الناس يعدون كل بحث لا يعود على البشر بالفوائد المادية او الادبية والمعنوية عقيماً يجب طرحهُ جانباً. ومن مفاخر هذا القرن ايصال الحقائق العلمية بطريقة سهلة الى عقول العامة لتساعدهم في حل مشاكلهم وفك معضلاتهم. ولا بد ان تعم هذه الحقائق كل العالم لان المساعي مبذولة في كل قطر لتعريف كل فرد الى مبادئ العلوم لكي يتمكن من فهم آراء العلماء

ان مباحث العالم الطبيعي في نظام النشوء والارتقاء علمت بعض الناس كيفية تحسين نوع خيولهم ومواشيهم ونسلها فعادت عليهم بارباح طائلة. وان تجارب الميكانيكي والضحايا العديدة في سبيلها قد اراحت الجمل والبغل والحصان من احمال الناس وقربت المسافات وذللت امواج البحار وقوات الهواء وها نحن نرى بعض العامة يسيّرون القطار والاوتوموبيل والطيارة والباخرة ويصنعون الفونغراف والآلات الكهربائية وكثيرون منهم يعرفون دقائقها ويفهمون خصائصها

ان خضوع دقائق المادة لارادة الكيماوي سهلت على العامة استخدام رؤوس اموالهم في التراكيب الكيماوية كالسماد الصناعي والبنزين ... الخ اجل ان لا حرية الا في المعرفة الحقيقية فمعرفة خصائص المكروبات حررت العامة من الجدري والحميات وغيرها من الامراض المعدية. واي حرية الزم من حرية المعرفة الحقيقية او اوقع منها واثبت. وعلى هذه القاعدة نجد عامة القرن العشرين تتمتع بحرية كانت قبلة ابناء العصور الخالية

ان مساعي العلماء اليوم منصرفة الى ايصال الحقائق الاجتماعية الى عقول العامة وهاهم يدرسون اميال عامة الناس ليكتبوا لهم ما يفهمونهُ عن المعاملة والتعامل والمشاركة والتآلف والحقوق والواجبات الى آخر ما هنالك من الامور الاجتماعية المعروفة

فما يبذلهُ علماء السيكولوجيا من درس نفس الانسان ومعرفة مواطن ضعفه وقوته واسباب ميله الى الجرائم والمنكرات والمساعي التي يبذلونها لتحسين احواله واتقان تربيته في البيت اباً وفي المدرسة تلميذاً وفي السجن مجرماً لعمري هو خير احسان الى البشر والقوة التي ينفقها علماء التربية لدرس ذوي العاهات العقلية والبدنية وتفهم باعداد ما يلائمهم من الدروس والصناعات لهي افضل حسنة تخفف شقاء نفر من البشر وويلاتهم

نهى المشترعون عن الفحش والزنى ولكن العلماء نشروا ابسط العبارات كتباً يعلمون بها الرجل والمرأة كيف يجتمعان ويعيشان معاً فيربيان نسلاً قليلاً قوياً سليماً فينظر الرجل الى المرأة نظرهُ الى شريكٍ في واجب مقدس لا الى صنيعةٍ في لذة وحشية . ان هذه الكتب لهي اكفل وسيط لترقية النسل وتقليل شقاء الفقر وزوال الخصومة من العائلة

ان ايصال مثل هذه الحقائق الى العامة ليس بالامر السهل فلا يوصل العلم الصحيح الى العامة الا العالم المدقق والباحث النقاد وكلنا يعرف بالاختبار ان انفع الاساتذة واكثرهم فائدة للتلاميذ واقلهم تعقيداً في خطبه وشرح دروسه هو اغزرهم علماً واعرفهم في علمه

فالعامة التي تفتخر برقيها هذا وتفاخر بحريتها تذكر العالم الذي اوصل لها هذه الحقائق سليمة سهلة اتعابهُ شاكرة منة وتخلد لهُ في صفات تاريخها ذكراً حميداً دونهُ ذكر ملوكها الفاتحين وعظمائها السياسيين ولهُ في تجارتها ونسلها ابلغ اثر يُذكّرها بانهُ خير المحسنين اليها

***

هذا هو الرجل الذي ترثيه العامة في العالم العربي لانهُ حررها بالعلم والبرهان وبابسط عبارة واسهل بيان حرّاً من السحر والجهل والخرافات وكتب لها البسائط في علم الفلك والكيمياء والنشوء والارتقاء وحفظ الصحة والعناية بالاطفال والاختراعات والاكتشافات جامعاً بين اللذة والفائدة

هذا هو احد زعماء الحرية الفكرية بين الناطقين بالضاد. هذا هو الدكتور يعقوب صرّوف المحسن الكبير الى ابناء العربية بعلمه ودقته نكبه عالماً مصلحاً وترثيه محسناً كبيراً

اذكر ذلك الشيخ الشاب جالساً الى مكتبه وقد قال لي قبل ان انصرف من حضرته. «اكتبْ لاعلّم العامة كيف يقرأون وماذا يقرأون وكيف ينتفعون بما يقرأون »

بيروت جورج عبود الاشقر